الفيضانات والزلازل وأثرهما الاقتصادي والاجتماعي والصحي في الدولة العباسية (575–656هـ)

د. فوزي أمين يحيى (*)

المقدمة

تعد الفيضانات والزلازل من الأخطار الجسيمة التي تواجه المجتمع قديما وحديثا حيث يبدو أثرها الاجتماعي والاقتصادي والصحي واضحا على المجتمع، وذلك لما تسببه من كوارث وأحداث تؤدي إلى هلاك العديد من الناس والحيوانات، وما تسببه في تدمير البيئة الاقتصادية والاجتماعية وأخطار صحية كبيرة، وقد واجهت الدولة العباسية العديد من هذه الكوارث، وعلى الرغم من محاولات السلطة الحد من هذه الأخطار ولما بذلته من سد الفتحات وإقامة السدود والحواجز إلا أنها لم تفلح في التقليل من خطورتها إذ اشتمل تدميرها العديد من الأبنية والمدارس والمساجد وإتلاف الزروع والمحاصيل وأحداث المجاعات، وسوف يتناول البحث عدداً من هذه الكوارث وما قامت به الدولة العباسية من إجراءات للحد من تأثيرها على مختلف الصعد.

الفيضانات

وردت لفظة الفيضان في القرآن الكريم في عدة سور منها قوله تعالى (فكلا

(*) كلية التربية / جامعة الموصل.

أخذنا بذنبه فمنهم من أرسلنا عليه حاصبا ومنهم من أخذته الصيحة ومنهم من خسفنا به الأرض ومنهم من أغرقنا وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون)[1]، وقال تعالى (حتى إذا جاء أمرنا وفار التنور قلنا احمل فيها من كل زوجين اثنين وأهلك إلاً من سبق عليه القولُ ومن آمن وما آمن معه إلا قليل)[2].

الفيضان لغة

ان معنى الفيضان في اللغة العربية يأتي من فضّ وفاض وفيض وفيضا وفيضانا- وهو السيل وكثرة الماء[3]، ويقال أيضا الفيض فيوض وافاض، ويقال ماء فيض أي كثير.. ويقال أرض ذات فيوض فيها ماء تفيض[4].

الفيضان اصطلاحا

وهو ارتفاع مناسيب المياه على غير المعتاد مما يؤدي إلى جريان الماء على جانبي الأرض فتغطي الأراضي الزراعية القريبة من مراكز التوطن السكاني وإهلاك الحرث والنسل[5].

أسباب الفيضانات

هناك أسباب عديدة للفيضانات أهمها

1. ارتفاع مناسيب المياه بسبب كثرة تساقط الأمطار و الثلوج كما حدث في

---

(1) سورة العنكبوت آية 40.

(2) سورة هود آية 40.

(3) البستاني: كرم وآخرون، المنجد في اللغة والأعلام، لبنان-بيروت، دار المشرق 1986م، ط24، ص602.

(4) المرجع نفسه، ص 603.

(5) المرجع نفسه، ص 603-604.

بغداد سنة 593هـ/ 1196م وسنة 621هـ/ 1223م وكذلك سنة 646هـ/1248م، حيث نرى أن كثرة سقوط الأمطار وتراكم الثلوج وذوبانها أدى إلى ارتفاع مناسيب المياه التي غطت العديد من القرى والبساتين وتدميرها[6].

2. ازدياد مناسيب المياه وارتفاعها بشكل كبير، وربما بشكل مفاجئ مما يسبب حدوث خلل في أبنية بعض السدود والحواجز والخزانات [7] التي يصعب السيطرة عليها من قبل الدولة والناس[8].
3. كما قد يحدث الفيضان لعدم كري الأنهار مما يؤدي إلى ترسب الطمى وزيادة ارتفاع أرض النهر وانسداد بعض الجوانب الفرعية والسواقي نتيجة للإهمال، ولكن هذه الفيضانات تعد أقل خطورة من غيرها[9].

الفيضانات في العصر العباسي 575-656هـ / 1180-1258م

تعرضت بغداد للعديد من الفيضانات في العصر العباسي الأخير ولاسيما في الفترة الواقعة ما بين 575-656هـ، فقد وردت أول إشارة إلى حدوث فيضان كبير في بغداد سنة 580هـ/ 1184م حيث اغرق جانبي بغداد وغطى الجسور وانقطع

(6) الغساني: عماد الدين أبو العباس إسماعيل بن العباس: المجد المسبوك والجوهر المحكوك في طبقات الخلفاء والملوك، تحقيق شاكر عبدالمنعم، بغداد 1975م، 537/2.

(7) ابن الفوطي: كمال الدين عبدالرزاق حامد، الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المائة السابعة، تحقيق مصطفى جواد، بغداد، مطبعة الفرات 1932م، ص 186.

(8) الغساني: المصدر السابق، 2/ 518.

(9) انظر الغساني، نفس المصدر، 2/ 518-519.

الاتصال بين الجانبين[10]، ولم يرد ذكر لفيضان خطير حتى سنة 604هـ/1207م عندما زاد نهر دجلة بسبب كثرة الأمطار والثلوج مما أدى إلى ارتفاع في مناسيب المياه وإغراق بعض المساجد مثل مسجد أبي حنيفة ومنبر احمد بن حنبل ودخول المياه إلى خانات بغداد حتى وصل إلى جامع الخليفة المهدي[11]، وقد بذلت الخلافة العباسية جهودا عظيمة بالتعاون مع أهالي بغداد لدرء أخطار هذا الفيضان وذلك بترميم النوافذ الهشة وترحيل الناس القريبين من النهر إلى أماكن بعيدة [12] حتى تم السيطرة على هذا الفيضان.

وبعد مضي عشر سنوات على هذا التاريخ حدث فيضان آخر سنة 614هـ/ 1216م اغرق أيضا جانبي بغداد [13] وأغرقت قسم كبير من المحال التجارية والدور القريبة حتى نرى ان المياه أخذت تتبع من بعض المناطق في بغداد وتعرض جامع أبي حنيفة النعمان للغرق وانقطعت الصلاة فيه وفي العديد من المساجد الأخرى بسبب كثرة المياه وشدتها، كما تهدمت العيد من السدود وأتلفت المزارع والبساتين حتى بلغ الماء باب البصرة[14].

وفي سنة 615هـ/1217م تعرضت بغداد لفيضان آخر شمل معظم بغداد حيث دمر المزارع واهلك الحيوانات[15].

---

(10) ابن جبير: حسن بن احمد، رحلة ابن جبير، لبنان-بيروت، دار صادر 1959م، ص201.

(11) الورد: باقر أماكنهم، حوادث بغداد في اثني عشر قرن، بغداد، مكتبة النهضة 1989م، ط1، ص124.

(12) انظر ابن الأثير: عز الدين ابن الحسن علي بن أبي الكرم، الكامل في التاريخ، بيروت، دار صادر 1966م، 228/12.

(13) المصدر نفسه، 274/12.

(14) الورد، المرجع السابق، ص126-127.

(15) المرجع نفسه، ص127.

وبعد سبع سنوات فاض نهر دجلة مرة أخرى وعلى الرغم من الجهود التي بذلت لترميم السدود وتعاون الأهالي لدرء خطر هذا الفيضان، إلا ان خطورته لم تقل عن فيضان سنة 615هـ، ولكنه لم يدم طويلا حيث انسحبت الأمطار وانخفضت مناسيب المياه فاستبشر الناس خيرا[16].

وفي سنة 625هـ / 1227م فاض نهر دجلة مرة أخرى فاغرق أراضي في بغداد ودمر الأراضي الزراعية وهدم الدور واغرق الأسواق في الجانبين الشرقي والغربي[17]، واستمرت معاناة أهالي بغداد والمناطق الجنوبية من هذه الفيضانات، ففي سنة 634هـ/1236م ارتفعت مناسيب نهر دجلة بشكل كبير غطت المياه جانبي بغداد وتعرضت المزارع والبساتين والأهالي لأخطار جسيمة هلك بسببها ما يقارب الخمسين نسمة[18].

وفي سنة 642هـ/ 1244م غطت المياه مرة أخرى جانبي بغداد وأهلكت أرواحا عديدة ولم يسلم من مساجد بغداد سوى ثلاثة مساجد منها حيث تعطلت الصلاة في العديد منها[19].

ان تكرار هذه الفيضانات في بغداد والمناطق الجنوبية وإيقاعها بالعديد من الناس وإهلاك الزروع وبشكل مكرر يدل على عدم قيام الدولة العباسية في تلك الفترة بعمل جاد وسريع ان لم يكن لدرء هذه الأخطار ولكن على الأقل لتقليل

---

(16) ابن الأثير، المصدر السابق 449/12.

(17) الورد، المرجع السابق، ص129.

(18) الورد، المرجع السابق، ص 129. ابن العبري: غريغوريوس، هرون الملطي، تاريخ مختصر الدول- بيروت، المطبعة الكاثوليكية 1958م، ص 251.

(19) ابن العبري: غريغوريوس، هرون الملطي، تاريخ مختصر الدول- بيروت، المطبعة الكاثوليكية 1958م، ص251.

خطرها مستقبلا، وبعد أربع سنوات أي في سنة 646هـ/ 1248م فاض نهر دجلة مرة أخرى وزاد زيادة كبيرة لم تشهد مثلها بغداد من قبل فكانت المياه تتدفق بسرعة وبشكل يصعب السيطرة عليها [20]، فأغرقت المياه المدرسة النظامية [21]، ووصل إلى ارتفاع 3/ 4م[22]. على الرغم من سعي الخلافة للتقليل من خطر هذا الفيضان والحد من خطورته من خلال استنفار الشعب ومتابعة الخليفة ووزيره هذه الجهود بالعمل على سد الفتحات التي أحدثها الفيضان إلا ان جهودهم تلك لم تثمر عن شيء وذلك بسبب زيادة مناسيب المياه وكثرة الأمطار وتوسع الفتحات وتدمير السدود مثل سد نهر العظيم، فأغرقت بغداد بشكل لم يشهد له مثيل [23] فدمرت الفيضانات المزارع التي بظاهر بغداد مما اثر على الحياة الاقتصادية لعموم الناس وبشكل كبير جدا، وقد بذلت الدولة جهودا إضافية باستنفار الناس وإحكام السدود والفتحات الضعيفة للتقليل من خطورة هذا الفيضان[24].

وفي سنة 647هـ/ 1249م تعرضت بغداد لفيضان آخر استمر لعدة أيام تعرضت بسببه بعض المساجد للغرق وتعطلت الصلاة فيها[25]، وتلاه فيضان آخر

(20) الفوطي، المصدر السابق، ص 186.

(21) نسبة المزراع مؤسسها نظام الملك للتفاصيل انظر: ابن خلكان، شمس الدين احمد ابن محمد، وفيات الأعيان، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، بلا 138/3.

(22) الفوطي، المصدر السابق، ص 230.

(23) سوسة: احمد، الفيضانات وغرق بغداد في العصر العباسي، بغداد 1963م، ص324.

(24) ينظر: الغساني، المصدر السابق 565/2.

(25) ابن كثير: عماد الدين إسماعيل بن عمر، البداية والنهاية، تحقيق احمد أبو مسلم وآخرون، بيروت، دار الكتب العلمية 1409هـ/ 1989م، 189/13.

سنة 651هـ/ 1255م غرقت بسببه عدد البيوت حتى نبعت المياه من بعضها، و أصاب الناس ضرر كبير منها[26].

وفي سنة 652هـ/1254م تكرر الفيضان وأغرقت محال عديدة وهلك خلق كثير وتهدمت منازل حتى ان الخليفة ركب زورقا طاف به في أزقة بغداد للاطلاع على أحوالها[27].

أما في سنة 653هـ/1255م فإن الفيضان هذه المرة لم يكتف بالعاصمة بغداد فقط، بل وصل إلى المناطق الوسطى والجنوبية حتى أغرق عدداً من الأراضي الزراعية في النجف والكوفة واهلك المز ارع والبساتين التي على طول الطريق، ودمر اكثر من سبعمائة ألف نخلة [28]، ولشدة هذا الفيضان وكثرة مياهه وامتداد مساحته الجغرافية مما أدى إلى تكوين مستنقعات و اهوار في منطقة البطائح وأصبحت أراضيها غير صالحة للزراعة، إضافة إلى تدمير العديد من أراضي بغداد ومساجدها وجوامعها مثل جامع السلطان وجامع المنصور[29].

ومن الفيضانات العظيمة الأخرى فيضان سنة 654هـ/ 1256م في زمن الخليفة المستعصم بالله فقد كان شديد التأثير لما خلفه من تدمير المزارع والبساتين والمحال[30]. حتى ان المياه دخلت دار الخلافة وأغرقت قسم من خزائنه وأثاثه، كما

---

(26) الورد، المرجع السابق، ص 135.

(27) المرجع نفسه، ص 136.

(28) ابن الفوطي، المصدر السابق، ص 303-304.

(29) الغساني، المصدر السابق، 2/ 565.

(30) الديار بكري: حسين بن حمد بن الحسن، تاريخ الخميس في أحوال انفس نفيس، بيروت، مؤسسة شعبان للنشر والتوزيع، بلا 2/ 375.

نرى ان الناس اضطروا للتنقل بواسطة اكلاك في الطرقات والشوارع [31]. واستمر هذا الفيضان في المناطق الجنوبية من بغداد فاغرق منطقة الخالص والراشدية والعباسية ودمر محالها وبساتينها وكان من نتائجه تفشي الأوبئة والأمراض والمجاعة بين الناس[32]. واستمر لمدة خمسين يوما حتى ان المياه غطت ما يقارب من نصف ارض السواد وبقيت الأرض في تلك السنة خرابا[33].

نتائج الفيضانات وآثارها

كان لهذه الفيضانات نتائج سلبية أثرت على العديد من نواحي الحياة:

فمن الناحية البشرية أدت إلى إهلاك العديد من الأرواح ولاسيما القريبة من النهر، وتهديم المنازل على بعضهم[34]، اما من حيث خطورتها على العمران فإن هذه الفيضانات عملت على تدمير بعض الأبنية وانهيارها وتصدع البعض الآخر منها، فقد وردت إشارات عديدة إلى دخول المياه إلى منازل بعض الناس، إضافة إلى الأضرار ببعض المساجد والمشاهد والآثار والمدارس مثل جامع ابن قتيبة ومسجد الإمام احمد بن حنبل[35] والمدرسة النظامية والمدرسة المستنصرية[36]. اما من الناحية الاجتماعية فقد أدت الفيضانات إلى تهجير السكان إلى أماكن أخرى

---

(31) ينظر: الكبتي، محمد بن شاكر، عيون التواريخ، تحقيق فيصل السامر ونبيلة عبدالمنعم، بغداد، 1980م ، 86/2؛ ابن الفوطي، المصدر السابق، ص318.

(32) الغساني، المصدر السابق 2/ 614؛ ابن الفوطي، المصدر السابق، ص 319.

(33) الهمداني: رشيد الدين فضل الله، جامع التواريخ، ترجمة محمد صادق وآخرون، مصر، دار إحياء الشباب العربي، بلا م 1/ 262.

(34) ينظر: الورد، المرجع السابق، ص 133.

(35) ابن الأثير، المصدر السابق، 12/ 274.

(36) الورد، المرجع السابق، ص 134.

بعيدة عن النهر وخلق نوع من الفوضى وعدم الاستقرار في أماكنهم إضافة إلى تعطيل الدراسة في المدارس والصلاة في المساجد والجوامع[37].

ومن الناحية الاقتصادية فإنها تعد من الكوارث الطبيعية الشديدة لما تخلفه من اثر على الناحية الاقتصادية؛ إذ ان غرق المزارع والبساتين وأشجار النخيل وتحويل الأراضي الزراعية إلى مستنقعات وأراضي خراب كلها تؤدي إلى تدمير البنية الاقتصادية للبلد وانتشار المجاعة بين السكان [38]، كما ان العوامل جميعها تؤدي من الناحية السياسية إلى ضعف البنية الداخلية للمجتمع إضافة لتعرض الدولة لهذه الأزمات أدت إلى إرباك أوضاعها الاقتصادية التي كان لها انعكاس على الوضع السياسي والاستعداد العسكري فكان لذلك اثر مباشر على ضعف الدولة.

الزلازل

وردت عدة آيات بهذا المعنى في القرآن الكريم، قال تعالى (إذا زلزلت الأرض زلزالها وأخرجت الأرض أثقالها) [39]، وفي قوله تعالى (هنالك ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديدا)[40].

الزلزال لغة

وردت هذه اللفظة في المعاجم بـ زلزل، زلزلة، زلزالا وزلزل الله الأرض (أرجفها) وزلزلت الأرض اضطربت وارتجفت واهتزت، أي تحركت الأرض وماجت[41].

(37) أماكنهم حسين، المدرسة المستنصرية، بغداد، مطبعة شقيق 1960م، ص 105.

(38) ابن الفوطي، المصدر السابق، ص 303-304.

(39) سورة الزلزلة، آية 1.

(40) سورة الأحزاب، آية 11.

اصطلاحا

هي هزات أرضية سريعة وقصيرة المدى تنتاب بعض أجزاء القشرة الأرضية، وقد تكون على شكل هزات ضعيفة لا يحس بها الإنسان، وقد تكون شديدة ومخيفة تحدث أضرارا كبيرة في الأنفس والعمران والحيوان[42].

الزلزال في العصر العباسي 575هـ 656هـ/ 1180-1258م

تعد الزلازل من الكوارث الطبيعية المهلكة للأنفس والعمران ومدمرة للمدن العامرة تاركة آثارا سلبية على المجتمع. ففي الفترة المحصورة ما بين سنة 575-656هـ نلحظ ان أول إشارة إلى حدوث زلزال مدمر في سنة 595هـ/ 1193م ففي منطقة الجزيرة هدمت الدور فوق أصحابها فأهلك الكثير من الأنفس، وطال الزلزال، منطقة الجبانة عند مشهد قبر الإمام على بن أبي طالب رضي الله عنه[43]، وفي سنة 597هـ/1200م تعرضت مناطق عديدة من العالم الإسلامي لزلزال امتد من ارض الروم إلى منطقة الجزيرة والشام والعراق، وقد ضرب هذا الزلزال مدن كثيرة واختفت قرية من أعمال بصرى واهلك الزرع والبشر وكان بشكل مروع [44]، وبعد هذا الزلزال حدث زلزال آخر بعد ثلاث سنوات سنة 600هـ/1204م شمل العراق ومصر والشام احدث خرابا واهلك أناسا كثيرة في

(41) البستاني، المرجع السابق، ص 303.

(42) الهيتي: صبري فارس، الجغرافية العامة، شيخ حمد الجبوري، الأردن-مطابع الدستور، 1999م، ط11، ص60.

(43) ابن الأثير، المصدر السابق، 110/12.

(44) ابن كثير، المصدر السابق، 13/ 27-28.

تلك المدن الواقعة تحت تأثيره [45]، وفي سنة 604هـ/ 1207م تعرضت الموصل لزلزال إلا انه لم يكن بتلك الخطورة[46].

ولم يرد في المصادر التاريخية حدوث زلزال حتى سنة 622هـ/ 1224م حيث شهدت منطقة الجزيرة وبغداد حدوث زلزال امتد إلى ديار بكر والموصل حيث هدمت بعض الدور فيها [47]. وتكرر هذا الزلزال سنة 623هـ/1225م حيث أدى أيضا إلى هدم عدد من الدور في الموصل والجزيرة، كما أدى إلى خراب بعض القرى والقلاع، واستمر هذا الزلزال المروع بشكل متقطع لمدة قاربت الثلاثين يوما[48].

وفي سنة 641هـ/ 1243م ضرب زلزال منطقة بغداد بجانبيها وتكرر الزلزال في تلك السنة ثلاث مرات، إلا انه لم يحدث أضرار تذكر من حيث هدم الدور وهلاك الناس [49] وشهدت بغداد ومناطق أخرى من العراق سنة 650هـ 1252م حدوث زلزال كبير في وقت كانت السماء تمطر بشدة وزاد الماء مما دفع الناس من الانتقال أو التحرك إلى مكان آخر، وأدى إلى هدم الدور فوق ساكنيها ومات كثير منهم، بالإضافة إلى تهديم المباني وبعض المشاهد القريبة من الزلزال[50].

(45) ابن الأثير، المصدر السابق، 12/ 198؛ الورد، المرجع السابق، ص 123.

(46) ابن الأثير، المصدر السابق، 12/ 277.

(47) المصدر نفسه، 12/ 447.

(48) الذهبي: شمس الدين الحافظ، دول الإسلام، تحقيق فهيم محمد شلتوت ومحمد مصطفى، مصر، دار النهضة المصرية العامة للشباب، 1974م، 128/2.

(49) الورد، المرجع السابق، ص 133.

(50) المرجع نفسه، ص 135.

مما لا شك فيه ان اثر هذه الزلازل كان مؤذيا على المجتمع والدولة من جميع النواحي، وذلك لما خلفته من آثار جسيمة من قتل وترويع وهدم وتخريب الدور وتدمير القلاع والآثار وغيرها من البنى العمرانية.

Abstract

Floods and Earthquakes: Their Economic, Social and Effects on the Abbaside State (575-606H)

Dr. Fawzi A. Yayya(*)

This research deals with dangers in Iraq and Baghdad in particular, which include floods and earthquakes (575-656H). Baghdad and other states where subject to many floods and earthquakes which had left passive impacts on all fields of life. The research also tackles the measures taken by the Abbasid state against these dangers and lessened their effect by setting up dams and blocking holes and reconstructing what had been damaged particularly on the two sides of the river, inviting the public (common people) to cooperate with the authority in order to protect their life against all these disasters and reduce their destructive effects.

(*) College of Education / University of Mosul